ثقافة الجودة في المؤسسة الجزائرية في مرحلة التسيير الذاتي من منظور ما بعد الاستعمار

أ. عبد المجيد بوقرة

جامعة أدرار

من هذه المقالة محاولة توظيف نظرية ما بعد الكولونيالية من خلال ما طرحته من قضايا ،وتفسير إشكالية ثقافة الجودة في مؤسسة التسيير الذاتي على اعتبار أنها ذات صلات وثيقة بالاستعمار وما تركه من تأثيرات على مستوى الفرد والمؤسسات الأصيلة في المجتمع الجزائري ، وتوضيح أن محاولات التنمية في تلك المرحلة لم تراعي هذه التأثيرات إذ نظرت ببساطة الى مرحلة التسيير الذاتي على أنها انتقال من مرحلة رأسمالية الى مرحلة اشتراكية.

تَعتبر نظرية ما بعد الاستعمار أن المجتمعات المستعمِرة لها قضايا تتميز بها تختلف تماما عن قضايا المجتمعات المستعمَرة ، وان الفرق بين هذه المجتمعات هو فرق حداثي في أن الأولى؛ الحداثة ليست أصيلة فيها عكس الثانية ،لذلك وجب مراعاة الفروقات بينها وأن ثقافة الجودة التي هي من متغيرات مقالتنا لابد ان ينظر اليها على مستوى الوحدات الكبرى، مع مراعاة العوامل الثقافية، على عكس المجتمعات المستعمِرة التي تعتبر الجودة فيها متعلقة بوحداتها الصغرى .

Abstract :

This article tries to exploit the neo-colonialism aspect from its views on explaining the problematic of culture quality in self-administring institutions for is related to colonialism and its residue on the person and established institutions of algerian society .its tries to show that development experiences at that time did not take in consideration this aspect for it simplified the relation as a transfer from capitalism to socialism.

Neo-colonialism theory considers that colonized societies have some aspects that differ totally from colonizing societies and the difference lies in the « fact development » for in the first is not original as in the second . For that it is essential to consider the differences .And the cultural of quality should be studied at higher unit levels taking into account micro-cultural facts rather than macro-cultural levels

مقدمة:

أدركت الجزائر غداة الاستقلال أن تحقيق التنمية ضرورة ملحة للقضاء على الدمار الذي تركه الاستعمار الفرنسي في فترة استعماره الطويلة ، وأدركت كذلك أن ذلك لا يتم إلا من خلال بناء الصرح المؤسساتي الذي يستطيع جمع أطراف معادلة التنمية ومعرفة الذات الجزائرية بدقة واختيار النهج الاقتصادي الملائم لتلك المرحلة.

لقد كانت المشاكل ضخمة أمام انطلاق مسيرة التنمية ، يمكن تحديدها في نوعين ؛ مادية متمثلة في اقتصاد مدمر ومؤسسات مفككة ، ومعنوية في شعب أمي في غالبه عامله الاستعمار على أنه مجموعة من الأهالي تحتل الدرجة الدنيا في سلمه الطبقي المقيت، وتعتبر هذه الأخيرة نتاج فترة طويلة تمتد إلى البدايات الأولى للاستعمار وتتم بطرق علمية مدروسة لأجل الإبقاء على الهيمنة.

إن الفرد الجزائري في تلك المرحلة رأى في إعادة تسيير المؤسسات الموروثة عن الاستعمار تحديا وواجبا وطنيا واستمرار لفعل المقاومة الذي لم يتوقف منذ البدايات الأولى للاستعمار،حيث لبى نداء السلطات في تلك المرحلة والتي كان التسيير الذاتي خيارها الأول لإحداث انطلاقة تنموية يستعجل الشعب الجزائري نتائجها ونجاحها .

لقد وجد الفرد الجزائري نفسه في بيئة مؤسسات موروثة عن الاستعمار وهي بيئة جديدة تماما عليه حاول الاستعمار أن يبقيه بعيدا عنها وعن كل عمل في المؤسسات الحديثة، والذي يمكن أن يناله من خلال تدرجه في مسير التعليم المحروم منه والذي كان مقتصرا على المعمرين من أبناء الفرنسيين فقط ، وحتى في الميدان الزراعي لم يستطع أن يحقق النتائج

المرجوة والتي تتعلق بعدم توفر الإمكانات المادية والتقنية من ناحية ، وتتعلق أكثر بما تركه المستعمر في نفسية الجزائري نتيجة اتخاذ الفرد الجزائري للارتباط بأرضه فعلا مقاوما للاستعمار رغم عدم تحقيق خدمة الأرض إلى لقدر ضئيل من الإشباع المادي والمعنوي، فقد قتل الاستعمار روح الفلاح في جموع الفلاحين [1].

إن المؤسسات لا يمكن أن تتحقق الفعالية إذا لم يمتلك العامل القدر الملائم من الكفاءة التي يستطيع من خلالها تحقيق جودة العمل كثقافة والتي بدونها لا يمكن تحقيق الفعالية في المؤسسة ، ولعل جودة العمل تتعلق بفعل كولونيالي بامتياز عجزت المؤسسات عن تشخيصه ومن ثم معالجته ظنا منها أنه يمكن ببساطة الاعتماد على المؤسسات الموروثة عن الاستعمار و توظيف أعداد من الفلاحين لإدارة الإنتاج فيها .

إن البساطة التي اتخذتها السلطات في حل مشاكل تلك المرحلة رغم اعترافها بجسامتها تعبر عن تحليل سطحي لمشاكل المجتمع الجزائري المتعلقة بالفرد الجزائري وما عاناه من محاولات لطمس هويته وقيمه وثقافته الأصيلة ، وان الاهتمام لا بد أن ينصب على معالجة ذالك الخلل الجسيم في ابتعاده عن الفعل المؤسساتي الحديث لفترة تمتد على امتداد مرحلة الاستعمار، وما كان لهذا الأثر من نتائج مباشر على عمله الذي اتسم بالبعد عن الجودة والإتقان ، ولعل معالجة هذا المشكل العويص من الاستحالة تجاوزه دون دراسة وتحليل مع التسليم يقينا بأن أي محاولة للاعتماد عل النظريات الحديثة سوف لن يوصلنا إلى الحقيقة على فرض أنها وجدت لتحليل ظواهر نمت في بيئات طبيعية عكس الحالة التي نوجد فيها والتي تعبر عن تأثير قوى استعمارية كبيرة على مجتمعات أخرى بدوافع عنصرية استغلالية مهيمنة نافية للآخر ووجوده، وهذا يحتم علينا استعمال نظريات ملائمة لهذه الأوضاع ، ولهذا سوف نحاول البعد عن النظريات التقليدية المعتادة وافتراض أنها عاجزة في تحليل وتفسير الأوضاع في مرحلة ما بعد الاستعمار[2].والاعتماد على نظرية ما بعد الكولونيالية

[1]- بنجامين ستورا، **تاريخ الجزائر بعد الاستقلال 1962-1988**،ترجمة صباح ممدوح كعدان،الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة- دمشق، 2012، ص12.

[2]- حتى ماركس وانجلز اتخذا موقفا مؤيدا للاستعمار انظر كتاب **الماركسية والجزائر** لماركس وانجلز ، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة-بيروت 1978،ص14.

بالنظر إلى قربها المفاهيمي والقضايا التي تطرحها والاعتماد عليها في تحليل إشكاليتنا المتعلقة بظاهرة ثقافة الجودة في المؤسسة المسيرة ذاتيا

سوف نقوم بتناول موضوعنا من خلال المحاور التالية:

المحور الأول:**المقاربة النظرية ما بعد الكولونيالية، مفهومها وقضاياها.**

المحور الثاني: **المؤسسة الجزائرية المسيرة ذاتية غداة الاستقلال من الحداثة الى مابعد الكولونيالية.**

المحور الثالث: **إشكالية ثقافة الجودة في المؤسسة كموروث ما بعد كولونيالي.**

المحور الأول:المقاربة النظرية ما بعد الكولونيالية، مفهومها وقضاياها :

ينصب اهتمامنا في هذا المقال على أن ننحى في دراسة الموضوع المطروح من خلال ركائز النظرية ما بعد الكولونيالية والتي تبين أن المقاومة فعل مستمر ويتطور مثلما تتطور الكولونيالية وأن الإشكالات التي نعاني منها لا يمكن تحليلها ودراستها وحلها من خلال نظريات الغرب الحداثية، وإنما من خلال مرتكزات نظرية ملائمة يمكن من خلالها تحليل اشكاليتنا والمتعلقة بثقافة الجودة في المؤسسة الجزائرية في مرحلة التسيير الذاتي .

أولا: مفهوم ما بعد الكولونيالية.

ظهرت هذه النظرية حديثا مرافقة لنظرية مع بعد الحداثة، وبالضبط في سنوات الستين والسبعين إلى غاية سنوات التسعين من القرن العشرين... ومن أهم تعريفاتها أن "مصطلح ما بعد استعماري يستخدم ليغطي كل الثقافات التي تأثرت بالعملية الامبريالية من لحظة الاستعمار حتى يومنا الحالي"[1]. حتى بعد موجات التحرر التي اجتاحت العالم والتي تعتبر عند بعض المفكرين تطور للفكر الاستعماري وتحوله من استعمار مادي إلى معنوي، ويرجع هذا إلى أن "هياكل السلطة التي رسختها العملية الاستعمارية ظلت متغلغلة برغم كونها ثانوية في الغالب داخل العلاقات الثقافية عبر بلدان العالم"[2]. والمعنى أن أراضي البلدان وإن

[1]- جميل حمداوي ،**نظرية ما بعد الاستعمار** على الرابط: http://www.alukah.net/publications_competitions/0/39097

[2]- بيل اشكروفت،جاريت جريفيث، وهيلين تيفين، **دراسات ما بعد الكولونيالية،المفاهيم الرئيسية**، ترجمة: احمد الروي، أيمن حلمي،عثمان عاطف، المركز القومي للترجمة- القاهرة،2010 ،ص43.

خلت من الجيوش والعسكر الأجنبي إلا أن ذلك لا يعني استقلالها الفعلي البتة وبالتالي لا يمكن عد مرحلة " ما بعد الاستعمار رديفا لما بعد الاستقلال، باعتبار أنها لم تحرز غير استقلال سياسي من خلال إنشاء هيكل الدولة ولم تتخلص من استتباعات الاستعمار على جل الأصعدة (الاقتصاد، الثقافة، اللغة...)" [1].

ثانيا: قضايا نظرية ما بعد الكولونيالية:

إن القضايا التي تعتبر الأساس الذي ينطلق منه النقد وتحليلات نظرية ما بعد الكولونيالية تمس بدرجات متفاوتة نسبة كبيرة مجتمعات العالم ، "فبحلول الثلاثينات من القرن العشرين غطت المستعمرات والمستعمرات السابقة 84.6% من سطح الكرة الأرضية"[2]، ويرجع أساس التفاوت إلى نوعية الاستعمار ومن قام به فرغم أن للاستعمار أسس وأهداف واحدة، إلا أن هناك فرق بين مختلف الاستعمارات ، وهنا لا بد أن نفرق بين الاستعمار الإنجليزي مثلا ومثيله الفرنسي ولعل هذا الأخير هو أخطر استعمار حديث مباشر على الإطلاق.

تتعدد القضايا التي تناولتها ما بعد الكولونيالية في محاولاتها لتحليل و فهم الفعل الاستعماري الحديث ومواقفه المبنية على الفصل العنصري وبناء الغرب لكثير من الجدران المادية والمعنوية بينه وبين الشعوب المستعمرَة وبين الشعوب المستعمَرة بعضها البعض، ومن خلال الثنائيات التي يستعملها بنزعة استعلائية وعنصرية النابعة من حب الهيمنة (شمال /جنوب) (متحضر/متخلف).... والتي استمرت خلال الاستعمار وتستمر حتى بعد موجات التحرر، والتي يمكن ملاحظتها حتى وقتنا الراهن والتي يمكن ذكر بعضها لأهميتها وعلاقتها بموضوع الدراسة والمتمثلة في الآتي:

- العالم الاستعماري عالم مقسم بنوعين من التقسيمات واحدة مادية والأخرى معنوية، ونجد فرانز فانون عبر على هذا العالم الاستعمار حيث يقول: "هذا

[1]- مجموعة من المؤلفين اشراف وتقديم علي عبود المحمداوي، **خطابات الـ"ما بعد"** ،دار الإيمان –الرباط، 2013،ص43

[2]- انيا لومبا، **في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية** ترجمة: محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع- اللاذقية،2007 ،ص9.

العالم المقسم قسمين، يسكنه نوعان مختلفان ،والطابع الخاص الذي يطبع النظام الاستعماري ، هو أن الوقائع الاقتصادية ،هو أن الفروق الاقتصادية والتفاوت الكبير في طرز المعيشة، لا تستطيع أبدا أن تحجب الوقائع الإنسانية "[1]،أما ادوارد سعيد فيصور هذا الانقسام على مستوى ما يتمثله الغرب نحو الشرق في "أن الشرقيين او العرب يسهل خداعهم ، وأنهم يفتقرون إلى النشاط وروح المبادرة مولعون في الإفراط في المدح والملق بالتآمر والمكر والقسوة على الحيوان...." [2].أما الرجل الغربي فهو المواطن الحداثي الذي يمثل قمة التحضر والرقي. إنها عبارة "عن مشاهد من التفوق الطبيعي /العرقي "[3].

- الهوية والانتماء الوطني ومحاولة الاستعمار"إيهام الشعب الذي تحرر بأنه عاجز عن تسيير ثرواته لأنه لم يبلغ بعد مرحلة النضج او الرشد الحضاري المطلوب"[4].وأنه في حاجة ماسة إلى الغرب مستعمره بالأمس لذلك فالعلاقات بين المستعمِر والمستعمَر يمكن تفسيرها بمفهوم الازدواج الوجداني الذي يعرف على انه"التأرجح في الرغبة بين الشيء ونقيضه كذلك يستخدم هذا المصطلح ليشي إلى الانجذاب إلى شي أو شخص أو فعل والنفور منه في نفس الوقت"[5] ويمكن أن يطرح مثال استعمال لغة المستعمر على حساب اللغة الوطنية .
- دراسة الغرب وضرورة تأسيس علم الاستغراب يقابل الاستشراق الغربي، والذي"نشأ للرد على مفهوم التغريب الذي امتد أثره ليس فقط إلى الحياة الثقافية وتصوراتنا للعالم وهدد استقلالنا الحضاري بل امتد إلى أساليب الحياة اليومية ونقاء اللغة ومظاهر الحياة العامة وفن العمارة"[6]؛انه علم "من اجل الرد على

[1]– فرانز فانون ، **معذبو الأرض**، موفم للنشر–الجزائر،2007، ص6.

[2]–ادوارد سعيد، **الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق**، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ص94.

[3]– هومي .ك .بابا ،**موقع الثقافة**، ترجمة : ثائر ديب، المجلس الأعلى للثقافة– القاهرة، ص172.

[4]– مجموعة من المؤلفين، مرجع سابق ، ص47.

[5]– بيل اشكروفت، جاريت جريفيث وهيلين تيفين ، مرجع سبق ذكره، ص61.

[6]– حسن حنفي، **مقدمة في علم الاستغراب** ، الدار الفنية للنشر والتوزيع– القاهرة، ص22.

المركزية الأوروبية وضرورة التحول من النقل إلى الإبداع"[1] وكسر الصورة النمطية التي ارتبطت بالتقسيم الكولونيالي لعالم ونظرته الاستعلائية للشرق.

- نقد الذات ومعرفتها،:" فنقطة الانطلاق عند الشروع في نقد تفصيلي تتمثل في الوعي بالذات ومعرفة النفس بصفتها نتيجة لعملية تاريخية جارية حتى اللحظة، وهي العملية التي أودعت في النفس آثار لا يحصى لها دون أن تصحبها قائمة جرد لها"[2]،ولعل معرفة تأثيرات الاستعمار الثقافية وما أورثه في نفسية الشعوب المستعمرة تشكل البداية في ذلك، وهذا لا يمكن دون معرفة تاريخية موضوعية لممارسات المؤسسات الاستعمارية دون إغفال لأي جزئية مهما كانت بسيطة على اعتبار أنها مقصودة يتوخى من ورائها نتائج تتعلق بالهيمنة والاستغلال.
- الهجرة والاندماج : يُعتبر أغلب منظري ومفكري نظرية ما بعد الاستعمار في الغرب من المهاجرين أو المنفيين من أبناء المستعمرات في الغالب،فهم يعايشون الفرق بين ما هو موجود في مجتمعاتهم وما هو موجود في المجتمعات التي يعيشون فيها، ويعايشون طريقة معاملتهم فيها وأن تأثير الأصل يظهر في هذه المعاملة حتى وإن ارتقوا بمكانتهم نتيجة التعليم ثم الوظيفة، ويلاحظون كذلك ما يعايشه أبناء جلدتهم من تمييز في جميع المستويات، ويصطدمون بذلك الانفصام بين القيم الحضارية من عدل ومساواة وتكافؤ الفرص التي تصف بها المجتمعات نفسها وبين ما يعايشونه واقعيا من عنصرية وتفرقة.

المحور الثاني:المؤسسة الجزائرية المسيرة ذاتية غداة الاستقلال من الحداثة إلى مابعد الكولونيالية.

نتج عن الاستعمار الفرنسي تقسيم رهيب في الجزائر على جميع المستويات، نتيجته تشكل مجتمعان مجتمع من المستوطنين دخيل غاصب سوف يحاول بكل الطرق القضاء على المجتمع جزائري أصيل مغلوب على أمره، ويتخذ في ذلك كل الأساليب الوحشية منها

[1]–حسن حنفي، مرجع سابق، ص18.
[2]– ادوارد سعيد، مرجع سابق، ص76.

والعلمية من أجل تخريب كل المؤسسات التي يقوم عليها هذا الأخير وتفكيكها لعلمه ما لهذه المؤسسات من أهمية وقوة.

إن قوة المؤسسة هي من سوف يحول العدد الكبير من المستوطنين من شذاذ الأفاق بأعدادهم الكبيرة "فقدمت من اسبانيا وجزر الباليار ومالطة وايطاليا قوارب تنقل سيلا من فقراء الصعاليك، زد على ذلك انه ادخل إلى البلاد رسميا عمال باريسيون ومهاجرون ألمان وسويسريون...في عام 1839م، كان السكان الأوروبيون في هذا التاريخ يبلغون 250000 نسمة منهم 110000 فرنسي"[1] لتتحول هذه الأعداد الكبيرة إلى مالكين للإقطاعات الكبيرة من الأراضي ويؤسسون مؤسسات استعمارية قوية رغم ما يبقى في دواخل أنفسهم من شعور حيال كونهم من الوافدين نتيجة ضعف وليس قوة،" فالمستوطن تعد الحالة التي يعيشها حالة مأساوية ، فقراره العيش في المستعمرة هو شبيه بزواج المصلحة لأنه يقبل بامتيازات غير شرعية لكونها مغتصبة ويحاول أن يتجاوز في داخله الإحساس بالذنب من خلال الاقتناع ومحاولة إقناع الآخرين بضرورة تحويل انتصاره من الميدان العسكري إلى مستوى القوانين والنظم"[2] ، قوة صاعدة بإمكانات رهيبة ودعم استعماري كبير تحاول التعويض عن ذنوبها بالاهتمام ببناء مؤسسات قوية تضاهي ما هو موجود في الوطن الاستعماري الأم ، مقابل قوة تضعف مع الوقت بمؤسسات مفككة وشديدة الضعف مع أفراد بنفسيات تأثرت بنتائج الفعل الاستعماري الذي أقصاها عن آداء أي فعل يعطيها إحساسا حتى بإنسانيتها، لذلك يصور الاستعمار الأهلي على أنهم متوحشون بالغريزة، ولديهم قابليات فطرية متأصلة للسرقة والاغتصاب ...وكان ينظر إلى العرب خصوصا البدو الرحل في الجزائر على أنهم يستعصون على التحضر[3].

سوف يتشكل في الجزائر مجتمعان اذا ، مجتمع حداثي على شاكلة ما هو موجود في أوروبا من مستوطنين يملكون كل شيء،يعيشون الحداثة بكل معانيها في مدن بطرق

---

[1]- شارل روبير اجيرون ،**تاريخ الجزائر المعاصرة**،ترجمة:عيسى عصفور،منشورات عويدات-بيروت-باريس،1982،ص 42.

[2]- مجموعة من المؤلفين، مرجع سابق، ص50.

[3]- نايجل سي.غبسون ، **فانون المخيلة بعد- الكولونيالية**، ترجمة: خالد عابد أبو هديب، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات- الدوحة،2013 ص 150.

موصلات سريعة ويعملون في مؤسسات اقتصادية وخدماتية ويتعلمون في مدارس وجامعات على النمط الأوروبي ، ومجتمع من الأهالي بالمفهوم الاستعماري لا يمت إلى الحداثة بصلة نتاج فعل استعماري طويل ومقصود ، يعيش في ظروف مأساوية تدفعه إلى الهجرة في تواريخ كثيرة إلى وجهات عديدة .

إن هذا الوضع وإن لن يبق مع تحقيق الاستقلال فإن نتائجه سوف تبقى طويلا، فهذه الحالة من الازدواجية المجتمعية سوف تزول لصالح المجتمع الجزائري مع انبثاق فجر حريته، فالمجتمع الاستعماري الحديث سوف يترك الجزائر ويرحل عنها تاركا وراءه خراب المادة والروح ، لتبدأ مرحلة جديدة تعتبر مرحلة بناء المجتمع الجزائري المثخن بالجراح ، ولعل هذه المرحلة هي الأصعب على الإطلاق أنها مرحلة بناء المؤسسات.

لقد ترك الاستعمار مؤسسات حديثة كان يظن يوما انه خالدا فيها، لأهلها الطبيعيين الذين قاوموا منذ الوهلة الأولى وانتظروا هذه اللحظة لأجيال عديدة، ولم يكن تحدي مقاومة الاستعمار بأكبر من تحدي المشاكل التي تركها على جميع المستويات المادية والمعنوية، ولعل أول التحديات كان النهج الاقتصادي الملائم لتلك المرحلة الحرجة من مراحل الاستقلال والتي تعطي الصورة الحقيقية للاستقلال وتلبي طموحات الجماهير العريضة من أبناء الشعب الجزائري وتحقق تمثلاتهم اتجاه الجزائر وقادتها.

لقد رأت القيادة في تلك المرحلة أن التسيير الذاتي هو النهج الأفضل التسيير المؤسسات التي تركها الاستعمار ويمكن من خلال مذكرات أول رئيس للجزائر أحمد بن بلة ملاحظة الأسباب التالية في اختيار هذا النهج الذي أعتبر الاختيار الأفضل لتحقيق أهداف الاستقلال:

- نظرته إلى التجار (البرجوازية) حيث يقول: "لقد مرت الحرب والثورة والاستقلال جميعا على هؤلاء السادة في العاصمة دون أن تترك فيهم أثرا، وبسبب أنهم يزودون المنتجين بالنقود لغرس هذه الخضرة أو تلك فإنهم يصبحون أسياد الموسم الذي غدا سلفا رهينة لقروضهم..."[1] ويصور" أنه كان ثمة خطر عظيم أن يحل الجزائريون الأكثر غنى محل الملاك الفرنسيين ويشكلون بعدهم برجوازية أهلية تبقي

[1]– مذكرات أحمد بن بلة كما أملاها على روبير ميرل،ترجمة: العفيف الأخضر، دار الآداب–بيروت ص172.

الجماهير الكادحة غارقة في بؤسها"[1]، إنه يصور البرجوازية الجزائرية بكل مكوناتها من تجار ومثقفين ..بصورة الانتهازيين بجدارة الذين يبحثون عن مصلحتهم الشخصية والوطن في أمس الحاجة إليهم.

- أن السلطة السياسية كانت بأيدي الجزائريين، ولكن كل السلطة الاقتصادية – الأرض نفسها- كانت ما زالت بأيدي الأوروبيين،كان هؤلاء مازالوا محتفظين بمزارعهم العظيمة يواصلون كما كانوا في الماضي استغلال الفلاح....وأن كلمتي الاستقلال والثورة لن يكون لهما أي مضمون وأن منهاج طرابس يبقى حبرا على ورق، إذا ظلت الأرض الجزائرية ملكا لكبار الملاكين العقارين الفرنسيين والجزائريين[2]. ومن هنا كان لزاما على القيادة في تلك المرحلة تأميم هذه الأملاك الواسعة وتسييرها بما يضمن العدالة، وهذا إنما يكون بالتسيير الذاتي.
- إن الثورة هي ثورة الفلاحين وأن التسيير الذاتي يصب في هذا الاتجاه، وأنه " يجب الاحتراس من النزعات التي تظهر هنا وهناك والتي تحمل اسم العمالوية ouvriérisme...هذه النزعة العمالية التي تعرفها عدة نقابات افريقية سوف تؤدي إلى خلق فئة محظوظة...آسف لأنه لا يوجد مزيد من الفلاحين في هذا المؤتمر"[3]، فالشك كان يداخل احمد بن بلة في أي حركة لأبناء المدن والعمال في تلك المرحلة لذلك سوف نجد أن التركيز سوف ينصب في هذه المرحلة بالدرجة كبيرة على تسيير المؤسسات الزراعية على حساب المؤسسات الاقتصادية الأخرى بكل أنواعها.

هذه إذا أهم الأسباب التي جعلت من القيادة في تلك المرحلة تتجه إلى خيار التسيير الذاتي وتعتبره خيارا لا رجعة فيه في سبيل تحقيق طموحات الشعب الجزائري والذي تتشكل الشريحة الكبرى فيه من الفلاحين أبناء الأرياف لذلك نجد أحمد بن بلة

[1] مذكرات أحمد بن بلة، مصدر سابق، ص 178.
[2] – نفس المرجع، ص 175-176.
[3] – بنجامين ستورا، مرجع سابق، ص 26.

يصرح قائلا:"أما أنا فما بقيت على قيد الحياة وما بقيت عندي بقية فلن أترك شخصا في الجزائر يمس أثمن مكاسب الثورة: التسيير الذاتي"[1].

إن ما يمكن ملاحظته في الأفكار التي سبقت هو تشابهها معا أفكار فرانس فانون حيث نجد أن القيادة في بداية الاستقلال كانت "في اتصالها بأصحاب النظريات مثل فرانس فانون، قد صاغت لنفسها أسطورة مؤداها أن الثورات المستعمَرين ريفية الأصل"[2]، وأن البروليتاريا الناشئة التي تعيش في المدن هي طبقة تتمتع نسبيا ببعض الامتيازات...وبما لها من امتيازات يمكن أن تعد الجزء البرجوازي من الشعب المستعمَر...فأصحاب الحرف، عمال، مثقفون، تجار صار تفكيرهم يحمل كثير من النواحي علامة البيئة الراقية...وفي هذه البيئة تسود الروح العصرية...تشعر تجاه الجماهير الريفية بحذر كبير...رأيهم في سكان الأرياف كرأي المستوطنين"[3].

مقابل هذه الأفكار "الفلاحون يسيؤون الظن بابن المدينة ويحذرون منه...يرتدي ملابس أوروبيين، ويقطن أحيانا في الحي الأوروبي...إنسان خرج عن قومه...باعوا أنفسهم فهم متفاهمون مع المحتل....الجماهير الريفية لم تنقطع يوما عن الاعتقاد بان تحررهم لا يتم الا بالعنف وان القضية هي قضية استرداد الأراضي"[4]. فالتشابه إذا كبير بين ما نجده من أفكار عند الزعيم احمد بن بلة وبين ما نجده من أفكار لدى فرانس فانون.

إن هذه الأفكار تحتاج منا إلى كثير من النقاش، فالاعتماد على أفكار فرانز فانون كان يحتاج إلى كثير من النقد باعتباره بعيدا عن الروح الجزائرية فمشكل الهوية والانتماء يطرح بقوة في مثل هذه المواقف وهو عامل مهم لتحليل في مثل هذه الدراسات فمع"كل التأثر والتقدير اللذين يستشعرهما كل جزائري عند ذكر هذا الاسم، فعمل فانون–الذي سوف يبقى في نظرنا ذا قيمة لا تقدر – لا يقدم ولا يمكنه

[1]– مذكرات أحمد بن بلة ، مصدر سابق،172.
[2]– كارل روبير اجيرون، مرجع سابق، ص193.
[3]– فرانز فانون، مرجع سابق، ص74–75.
[4]– نفس المرجع السابق، ص 78–93 .

أن يقدم نشيد النضال والعمل للشعب الجزائري لأنه لا يغوص إلى الجذور العميقة من ذاتية هذا الشعب،ولا هو يعانق كلية موضوعيته الاجتماعية والتاريخية"[1].

ثمً إن تحقيق التنمية ما بعد الاستعمار تحتاج إلى كثير من النقاش العلمي بين مكونات المجتمع الجزائري ويسبقها معرفة الذات الجزائرية وأن اختلاف المكونات الجزائرية إنما هو اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد ،ومن ثم فإن إقصاء أي مكون لا يخدم مصلحة التنمية،والأسئلة التي يجب طرحها في هذا الصدد كثيرة لعل أهمها لماذا النظرة السلبية وتعميمها على أهم الطبقات التي قامت عليها الحداثة؛ الصفوة والبرجوازية والعمال؟ وألم يكن حريا بالقيادة في تلك المرحلة الاعتماد على هذه الطبقات دون إقصاء على اعتبار أن بناء المؤسسات لا بد أن يتم بالاعتماد على التراكم الثقافي لهاته الطبقات في مجال العمل المؤسساتي؟

لقد صور القادة غداة الاستقلال التسيير الذاتي للمؤسسات ببساطة مفرطة وكأنهم في دولة متطورة،على أنه انتقال من الاقتصاد الرأسمالي إلى الاقتصاد الاشتراكي وانه لا يتم بسهولة"[2].أضف إلى هذا اعتقادهم بإمكانية حدوث هذا الانتقال بالاعتماد على جموع من الفلاحين الذين لم يسبق لهم وأن اشتغلوا في تنظيمات حديثة البتة ، دون الأخذ بعين الاعتبار للحقل الثقافي في الانتقال من المجتمع ما بعد الكولونيالي إلى المجتمع الحديث، ليتحول واقع الجزائري في بدايات الاستقلال إلى "معاش من نوع خاص، هو معاش قهر ما، معد للإنسان الجزائري كي يستثمر مجموعتين من القيم ألمتناقضة وبسبب استمراريتها تشكل هذه العملية السيكولوجية مصدرا للتوترات[3]، ليستمر هذا الإحساس بالانفصام الذي كان يعيشه الجزائريون في مرحلة الاستعمار معهم في مرحلة ما بعدا لاستعمار .

لعل من أكثر الإشكاليات التي عانت منها جهود التنمية هي ما تعلق بثقافة الجودة لدى العمال الذين أقحموا في المؤسسات الجديدة والمتعلقة بالتسيير الذاتي والتي

[1]- مالك بن نبي، **القضايا الكبرى**، دار الفكر- دمشق،،2000 ص108.
[2]- مذكرات احمد بن بلة ، مصدر سابق، ص179.
[3]- بشير محمد، **الثقافة والتسيير في الجزائر**، ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر العاصمة، 2007، ص20.

تحتاج منا إلى نقاش، يتعلق بكونها إشكالية ثقافية ناتجة عن فعل كولونيالي منظم ممارس على الشعب الجزائري؛ استعمار يعرف جيدا مدى التأثير الكبير لها والتي دارت حولها كثير من التحليلات في نظرية ما بعد الكولونيالية.

المحور الثالث: إشكالية ثقافة الجودة في المؤسسة كموروث ما بعد كولونيالي.

عمل عربي (خدمه عرب) travail arabe هو الوصف الملازم للأعمال التي يقوم بها الجزائري أثناء الاستعمار، "فخدمة عرب تستعمل لوصف العمل المنجز بشكل سيء" [1]، وهي في الغالب ترتبط بكل السكان الأصليين للمستعمرات ومن أسبابها أنه عند الأهلي العادة البدائية تتفوق على التقدم الوظيفي ...وأنه لا يستطيع تنسيق المهمات ...ليس لديه إحساس بإلحاحية العامل الزمني..وأن العمل يبدو كسلسلة من الأفعال المحفوظة غيبيا والخالية من المعنى"[2]، هكذا يفسر المستعمرون أسباب عجز الأهالي بلغة المستعمِر عن تحقيق الجودة والإتقان.

يرجع حسب فرحات عباس حالة خدمة عرب إلى كون "العمال في معظمهم ينحدرون من قبائل محاربة كانت غنية وقوية ، وبالطبع فقد فقدت خيرة رجالها؛ مات رؤساؤها وأقوى رجالها ...وعندما كان على هؤلاء الذين ضلوا طريقهم أن يعيدوا بعدما وضعوا السلاح بناء بيوتهم لم يعرفوا كيف يعملون ، فبدوا أمام الغزاة غير ماهرين "[3]، إنها إذا أولى المراحل التي فقد فيها الجزائريون المهارة التي كانوا يملكونها من أجل تلبية رغباتهم وإشباعها ، والتي سوف تستمر مع استمرار مكوث الاستعمار وتتكرس أكثر فأكثر بإبعاد الجزائريين عن كل فرصة تتيح لهم الحصول على المهارة والإتقان فيبقون في الفقر الذي سوف يتحول في ما بعد إلى ثقافة فقر يصعب علاجها،تتحول مع مرور الوقت إلى ثقافة مقاومة للاستعمار تأتي على شكل" كسل يعتبر تخريب مقصود للآلة ألاستعمارية[4].

---

[1]- فرحات عباس، **الجزائر من المستعمرة إلى الإقليم: الشاب الجزائري**، ترجمة: أحمد منور، مطبوعات وزارة الثقافة، الجزائر،2007، ص52.

[2]- نايجل سي.غبسون، مرجع سابق، ص151.

[3]- فرحات عباس، مرجع سابق، ص 51.

[4] فرانز فانون ، مرجع سابق، ص 262.

ولما كان هذا الإشكال لا يتعلق بمؤسسة من المؤسسات أو بقطاع من القطاعات الاقتصادية ، بل يتعلق بدولة ما بعد الاستعمار فانه يحق لنا أن نتساءل: هل أدرك القادة في الجزائر هذه الإشكالية المتعلقة بثقافة الجودة والتي نشعر بوجوده ونلمسها في حياتنا حتى في وقتنا الراهن، وأنها لا تتعلق بالمستوى الجزئي بقدر تعلقها بالمستوى الكلي من ألمؤسسات أم أن "شكوى السيد الكولونيالي المألوفة من أن المواطن الأهلي بطيء وكسول يقدمها القادة الوطنيون مع تحريف إيديولوجي جديد، الآن عليهم أن يضحوا من أجل الأمة وتصبح التنمية بأي وسيلة الصنم الجديد"[1] ،سوف تخبو تلك الشعلة المتقدة من العمل الثوري ويتحولون إلى بيروقراطيين بجداره " تصبح لديهم نزعة إدارية إزاء العمل وقد يتحاشون التقنيات وخبراء التخطيط القادمين من جامعات غربية"[2] إنها الصورة الجديدة التي تعيد إنتاج كثير من قضايا نظرية ما بعد الاستعمار بدل تحليلها واستعمالها لحل المشاكل الحقيقية لدولة ما بعد الاستعمار.

استنتاج:

إن إشكالية ثقافة الجودة هي إشكالية مؤسسات ما بعد الاستعمار بامتياز، ترتبط ارتباطا وثيقا بالمؤسسات التي تجعل من أولوياتها التغيير وتربط الجودة بخططها ولا تحمل الأفراد مسؤولية تحقيقها في حين تنأى هي بنفسها عن تحمل المسؤولية ، وأن هناك اختلاف كبير بين المجتمعات على اعتبارات عدة منها الاعتبار التاريخي الذي جعل صنف من هذه المجتمعات مستعمَرة وصنف آخر منها مستعمِرة ، وهذا الاختلاف هو اختلاف جوهري يتعدى لنوعية المشاكل المطروحة في هذه وتلك ، وطريقة حلها من حيث النظريات والآليات حتى بعد هذه العقود من تصفية الاستعمار وانه من الأجدى استعمال وصف ما بعد الاستعمار للتفريق بينهما .

إن الإشكاليات الموجودة في مجتمعات المستعمرة هي إشكاليات حداثية لأنها تتعلق بالوحدات الصغرى تمس قطاعا ضيقا من هذه المجتمعات وان مست المجتمع كله فهي مشكلة تتعلق بروح العصر الحداثي وما بعده، أما إشكالات الدول المستعمرة

[1] – نايجل سي.غبسون، مرجع سبق ذكره، ص289.
[2] –نفس المرجع، ص192.

فهي إشكالات ما بعد الاستعمار وهي إشكالات تتعلق بالوحدات الاجتماعية الكبرى وهي تمس المجتمع بأكمله وحلها لا يأتي إلا في هذا الإطار وأن أي محاولة للحل بعيدا عن الكلية هو تأجيل للحل وتأزيم للمشكلة ولعل ما يتعلق بالجودة يمكن أن يكون مثالا حيا، لأن حل مشكلة الجودة يتعلق في الدول الحديثة بالمستوى الجزئي، في حين حل الإشكالات المتعلق بها في دول ما بعد الاستعمار يتعلق بها كثقافة وتعالج في أطر الوحدات الكلية.

قائمة المراجع:

1- ادوارد سعيد ، **الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق** ، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع – القاهرة.

2- انيا لومبا ، **في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية** ترجمة: محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع اللاذقية،2007.

3- بشير محمد، **الثقافة والتسيير في الجزائر**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ،2007.

4- بنجامين ستورا، **تاريخ الجزائر بعد الاستقلال 1962–1988**،ترجمة صباح ممدوح كعدان، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، .2012

5- بيل اشكروفت،جاريت جريفيث وهيلين تيفين، **دراسات ما بعد الكولونيالية،المفاهيم الرئيسية**، ترجمة: أحمد الروي، أيمن حلمي،عثمان عاطف، المركز القومي للترجمة- القاهرة،.2010

6- حسن حنفي ، **مقدمة في علم الاستغراب**، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة.

7- شارل روبير اجيرون ،**تاريخ الجزائر المعاصرة**،ترجمة:عيسى عصفور،منشورات عويدات، بيروت، باريس،1982.

8- فرانز فانون، **معذبو الأرض**، موفم للنشر-الجزائر،.2007

9- فرحات عباس، **الجزائر من المستعمرة إلى الإقليم ، الشاب الجزائري،** ترجمة: أحمد منور، مطبوعات وزارة الثقافة ، الجزائر،2007.
10- ماركس- انجلز، **الماركسية والجزائر** لماركس وانجلز ، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت .1978.
11- مالك بن نبي ، **القضايا الكبرى،** دار الفكر، دمشق ،2000 .
12- مجموعة من المؤلفين اشراف وتقديم علي عبود المحمداوي ، **خطابات الـ"ما بعد"** ،دار الايمان ،الرباط، .2013
13- مذكرات أحمد بن بلة كما أملاها على روبير ميرل، ترجمة: العفيف الأخضر، دار الآداب، بيروت .
14- نايجل سي.غبسون ، **فانون المخيلة بعد- الكولونيالية،** ترجمة: خالد عابد أبو هديب، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة،.2013
15- هومي .ك .بابا ، **موقع الثقافة،** ترجمة : ثائر ديب، المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة، ص172.

المواقع الالكترونية:

1- جميل حمداوي ،**نظرية ما بعد الاستعمار** على الرابط
http://www.alukah.net/publications_competiti ons/0/39097